

أثر طريق الحرير في التواصل الثقافي والاجتماعي بين العرب والصين

أ.د. سامي الماضي(*)

الثقافي والمعرفي بين العرب والصين، إذ وقف البحث على تمهيد ومحورين أساسيين، تناولت في التمهيد الجذور التاريخية للتواصل بين العرب والصين فضلاً عن أبرز الآليات التي ساعدت على نمو هذه العلاقات ومن أبرزها الترجمة، والرحلات، وأمّا المحور الأول فقد تناولت فيه التواصل في العصر الإسلامي، وأمّا المحور الثاني فقد تحدثت فيه عن التواصل في العصر الحديث، متخذاً من المنهج التحليلي أداة لمعالجة النصوص التي وقف البحث عندها، وختمت البحث بتوصياتٍ ونتاج، ولعلّ أبرز تلك النتائج هي العلاقات السلمية بين العرب والصين، وتغليب المصلحة المتبادلة بينهما على الصراعات التي لا تُغني ولا تُشبع. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على مُحَمَّدٍ وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. أمّا بعد...

فيُعد طريق الحرير بشقّيه الشمالي والجنوبي من أهمّ الضمانات السيادية التي تربط الصين بالعالم؛ لكونه يمثل رافداً اقتصادياً وتجارياً وثقافياً يساعد في الحفاظ على المراكز الأساسية التي تعتمد عليها مقومات الإمبراطورية الصينية، لذلك فإنّه نافذة التواصل مع العالم، من هنا كان اهتمام الصينيين بطريق الحرير ليس من باب الصدفة؛ وإنما لما يمتلكه من مميزات جعلت الصين من دول العالم المتقدمة.

ومن هذا المنطلق كان نواة بحثنا المتواضع في الكشف عن أثر طريق الحرير في التواصل

(*) الجامعة المستنصرية / كلية الآداب.

التمهيد:

يُعد التواصل بشقّيهِ الثقافي والاجتماعي ظاهرةً إيجابيةً تلقت في الحضارات والشعوب، عبرَ المقاربة في المجالات التي تتجلى فيها المصالح المشتركة، وتؤدي دوراً كبيراً في التقارب أو التباعد، ولعلَّ سِمَة البشرية بشكلٍ عام هي التواصل والتلاقي والتفاعل والتبادل فيما بينها، ولقد واكب الإنسان التواصل منذ القدم، فهو عبارة عن ميلٍ عميق في ذاته نحو التواصل مع الآخرين، سواءً أكانت لمعرفة ما لديهم، أم طريقة تفكيرهم، أم حب الاستطلاع ومعرفة المزيد من مُحيطه، وابتكار السُّبُل التي تمكنه من تحقيق ذلك، ثمَّ الإفادة منه عن طريق تطبيق الفكر من جهة، والواقع من جهةٍ أخرى^(١)، على أن لا يتجاهل في التواصل خصوصيات الآخرين، ولذلك كانت فكرة سائدة في القِدَم أن للعالم أربعة ملوك: ملك العرب، وملك الصين، وملك الهند، وملك الروم. ونرى أنَّ التواصل بين هذه الحضارات قد عرفه التاريخ منذ القِدَم، وهذا ما وجد في أغلب الوثائق والسجلات، وحتَّى النقوش التاريخية التي عثر عليها المؤرخون، تُثبت أن الحضارات قد دخلت وتلاقحت في عمليات التواصل الثقافي والاجتماعي، سواءً أكانت بشكلٍ دائمٍ ومستمر أم شابه بعض الفتور، وقد ضمن ذلك التواصل لشعوب الحضارات فرصة للكسب البشري والانتشار، وهذا نتيجة لربط بين عقول المُبدعين الذين صنعوا تاريخ البشرية، فضلاً عن إنجازاتهم العلمية والفنية، وثمره لهذا التواصل تستوي في ذلك الحضارات الصينية والحضارة العربية، والحضارة المصرية القديمة فضلاً عن الحضارة اليونانية^(٢).

فقد عُرف عن الصينيين الصناعة والرسم،

وعُرف عن العرب الفصاحة والبيان، ولعلَّ استيعاب العرب لثقافة التواصل جعل منها أمةً مميزة في كثيرٍ من سماتها، ومعروفةً بين الشرق والغرب بدينها الحنيف، فضلاً عن صفاتها^(٣) الأخرى.

فإذا كان التواصل كما يُعبر عنه أصحاب المعاجم بمعاني عدَّة من الاقتران والاتصال والصلة والترابط والالتئام... وتواصلت الأشياء أي تتابعت ولم تنقطع^(٤) إذن فهو عملية نقل الأفكار والتجارب وتبادل المعارف بين الأفراد والجماعات... وهو مبني على الموافقة أو المعارضة والاختلاف؛ لأنَّه يُعد جوهر العلاقات التواصلية بين الجماعات فضلاً عن الأفراد، لذا تمثَّلت وظيفته بالمعرفية، وهي نقل للرموز الذهنية وتوصيلها بوسائل لغوية وغير لغوية، ووظيفة وجدانية تقوم عن طريق استمرار العلاقات الثنائية، ولقد تمثَّلت التواصل بين الحضارات العربية والصينية بأنماطٍ مختلفة منها المباشرة أي بالتواصل اللساني عن طريق السفراء والتجار، أو بشكلٍ غير مباشر عن طريق السلع والمنتجات الصينية التي كان ينقلها التجار العرب من الصين إلى بلادهم أو العكس، ولهذا التواصل سُئل كان يسلكها الطرفان تمثَّلت بأبرزها (طريق الحرير) الذي يُعد مرتكزاً لنمُو العلاقات التواصلية الثقافية والاجتماعية بين الحضارتين؛ لأنَّه يربط بينهما سواءً أكانت عن طريق البر أم البحر، ويمكن القول إنَّ وظيفة التأثير كانت بارزةً في العلاقات، إذ سرعان ما أخذ المسلمون التجار يؤثرون بالشعب الصيني، وتذكر لنا كتب التاريخ أنَّ الإسلام اتَّسع بالانتشار في الصين بسبب التجار الذين وطأت أقدامهم أرض الصين^(٥)، وازداد اهتمام الصينيين بالإسلام في

العصر الحديث أيضاً، حتى أنه في عام ١٩٨٠م عُيّن إبراهيم يانغ جنفرين نائباً لرئيس الوزراء لأول مرة ضمن التعديلات التي طرأت على خريطة المناصب السياسية^(٦)، وهذا الأمر يعود إلى أنّ المسلمين وثقافتهم تدعو إلى تقبل الآخر، وهذا الأمر يسهل الاندماج مع غيرهم والاطلاع على تركيب ثقافتهم، فضلاً من ضمانة النسق الاجتماعي الذي قامت عليه تصوراتهم للآخر^(٧).

فضلاً عن ذلك فإنّ الموروث الديني للمسلمين قد أكد على التواصل والتعارف؛ كونه يمثل صلةً للتكامل والتعايش مع الآخر: يقول (ﷺ): {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (سورة الحجرات، آية: ١٣). إذ الأساس هو التواصل مع الآخرين والاندماج معهم، لذا فإنّ التنوع والاختلاف هو خدمة للإنسانية جميعاً، مبنياً على أساس المصالح المشتركة والمُتبادلة بين الطرفين.

ولعلّ الإشارة الواضحة التي ذكرتها لنا المصادر التاريخية عن القائد العربي قتيبة بن مُسلم الباهلي (٤٩-٩٦هـ/٦٦٩-٧١٥م) ما هي إلّا أنموذج للتواصل الثقافي، والحوار المعرفي في القصة التي تدل على عمق العمل بمبادئ الدين الإسلامي، عندما فتح سمرقند وبخارى ووصل إلى حدود الصين، وحلف ألا ينصرف إلّا أن يظأ أرضها، وبعث إلى الإمبراطور الصيني آنذاك وافتأ إليه وهو هبيرة بن مُشمرج الكلابي (ت ٩٦هـ/٧١٤م) ليُحاوره، وبعد محاوره طويله انتهى الأمر بحكمة الطرفين بالابتعاد عن الحرب، واللجوء إلى التواصل بين العرب والصين وتبادل الهدايا، وما هذا

إلّا دليلٌ على نجاح الحوار بسبب التوصل إلى قواسم مشتركة تبرز في المصالح لكلا الشعبين. ويمكن لنا الإشارة إلى الآليات الرئيسة التي يتم عبرها التواصل؛ لأنّ الإنسان قديماً وحديثاً قد تفنّن في إيجاد آلياتٍ متنوعة يتوسّم منها التوصل إلى مبتغاه، وهي:

١. الترجمة؛ فإنّ التواصل والترجمة هما أكثر الأشياء تلازماً؛ لأنّه لا يمكن الوصول إلى الآخر - أقصد من الحضارات الأخرى - من دون هذه الوسيلة، كونها تمثل مفتاحاً للتواصل، وقد نشطت الترجمة بين العرب والصين قديماً وحديثاً، وهذا يعود إلى عمق العلاقات بين الحضارتين، إذ تذكر المصادر أنّ العرب التجار كان لهم الدور المميز في ذلك، بسبب الاحتكاك المباشر مع أهل الصين، فعن طريقهم وصل الإسلام إلى الصين، وكذلك وصلت علوم الصين إلى العرب أيضاً عن طريق التجار من الطرفين.

وأما في العصر الحديث فقد نشطت حركة الترجمة بينهما بشكلٍ كبير، والسبب يعود إلى اهتمام الجانبين بها، فضلاً عن فتح مراكز متخصصة لترجمة الكتب من العربية إلى الصينية وبالعكس، ومنها على سبيل المثال ترجمة كتب أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م) (ضحى الإسلام)، (فجر الإسلام)، وترجمة الكتب الكلاسيكية الصينية^(٨)، وقد أكد لنا الواقع الدور الإيجابي الذي تؤديه الترجمة في عملية التواصل الاجتماعي والمعرفي وتعميقها أكثر الذي تحولت فيه الترجمة إلى ممارسة يومية في حياة الأمم المتقدمة، ومنها الأمة العربية والصينية؛ لكونها خطوة عملية وحاسمة في عملية التطور الحضاري، فضلاً عن التواصل

الثقافي والمعرفي والتقارب والتلاحق بين الأمم، ولاسيما في عصر العولمة Globalization وتكنولوجيا الاتصال^(١).

٢. الرحلات، لقد كانت الرحلات التي يقوم بها الرحالة - ولاسيما العرب - هي إحدى آليات التواصل مع الشعوب؛ لما تمثله من تصوير واقعي يدونه الرحالة لكل ما يراه أو يحتك به، فضلاً عن رصد ظواهر لغوية واجتماعية ومعرفية وفلكية تصادفه في رحلته، ومن أمثلة ذلك كثير، ولعلّ رحلة التاجر سليمان السّيرافي (ق ٣هـ/٩م) التي تُعد البوابة لمعرفة إمبراطورية الصين والهند، وكذلك رحلة ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ/١٣٠٤-١٣٧٧م). واليوم يمكن أن تكون السياحة وسيلةً أيضاً للتواصل الاجتماعي والثقافي؛ لما تمثله من تواصل ثقافي وديني واجتماعي واقتصادي وكذلك السياسي، كما يفعله الرؤساء والملوك إذ أغلبهم لديه مصيفاً يقضون به شهور الصيف وكذلك الشتاء، تبعاً لفصول السنة.

المحور الأول:

التواصل في العصر الإسلامي

إنّ الحديث عن العلاقات العربية - الصينية لا يتوقف عند عقد أو قرن من الزمان، بل الأمر أبعد من ذلك، ولعلّ طريق الحرير له الفضل الكبير في ذلك، إذ ربط قديماً الصين بالعرب؛ لأنّ العلاقة لم تكن وليدة لعصر الإسلام فحسب، وإنما ابتدأت قبل الإسلام بقرون، غاية الأمر أنّها لم تكن وثيقة وذات صلة قوية؛ لأنّها كانت موجودة بشكل غير مباشر، ثم تطورت بظهور الإسلام إلى علاقة مباشرة، عن طريق السفراء الذين أرسلتهم العرب آنذاك^(١).

وقد ربط الطريق قديماً العرب بالصينيين عبر مراحل يمر بها على الرغم من البعد، إذ ترك ارتباطاً مميزاً بين الحضارتين العربية والصينيّة، واستعملت العرب مجازاً يُعد الصين عنهم، فقد جاء في الأثر عن النبي (ﷺ)، أنّه قال: "اطلبوا العلم ولو في الصين"^(١). والذي يعنينا منه أنّ الأمر فيه أكثر من دلالة، الأولى أنّ طريق العلم بعيد المسافة قريب الزمن؛ لأنّ العالم يختصر لطلابه تلك المسافات بعلمه الذي جمعه عبر سنواتٍ طويلة من عمره في مسافة قصيرة يرويها لهم، والدلالة الثانية أنّ الصين كانت معروفةً عند العرب عظيمة الشأن، وعريقة في الحضارة ولها آداب عالية، ولكنها بعيدة من الناحية الجغرافية، والدلالة الثالثة هي تشجيعٌ للصحابة وغيرهم ممّن دخل الإسلام على طلب العلم والبحث عن الحكمة.

وقد أشار أغلب الباحثين إلى أنّ أول إرساءٍ للعلاقات العربية الصينية بشكلٍ جوهري كانت في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٤٧ق.هـ-٣٥هـ/٥٧٧-٦٥٦م) (ﷺ)، عندما أرسل وفوداً إلى أباطرة أسرة تانغ الصينية (唐朝 Tang dynasty) (٦١٨-٩٠٧م) الحاكمة في تشانغان (长安 Chang'an)، وأنّه عن طريق تلك المبادرة تمكّن العرب من بناء أول مسجدٍ في مدينة غوانغتشو Guangzhou (廣州)، إذ حافظ العرب على تلك العلاقات وشهدت تطوراً ملحوظاً في العصر العباسي، ولاسيما في التبادل التجاري^(١)، ولعلّ ذلك خير ما يمثل التواصل الثقافي والاجتماعي؛ لأنّ التجارة تُعد شريان العلاقات بين الدول، فضلاً عن كونها انعكاساً لثقافة تلك البلدان. إنّ هذه الرواية التي ذكرناها هي الأكثر قبولاً في البحث العلمي عن العلاقات العربية الصينية؛

لأنه في تلك السنة (الثلاثين) من الهجرة إنما وصلت قوة المسلمين آنذاك إلى أواسط آسيا من ناحية، وإلى السند من ناحية أخرى^(١٣)، وهذه الرواية نستدل بها على أن التواصل الثقافي والاجتماعي بين الحضارتين كان منذ وقت ليس بالقليل، ومع ذلك فإن التواصل يعود الفضل به إلى التجار العرب والمسلمين أيضاً، الذي أخذوا على عاتقهم نقل الثقافة لكلا الحضارتين، عن طريق المنتوجات والبضائع التي تاجروا بها.

ويبقى ما أورده لنا الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣ م) عن ذلك الحوار البليغ الذي دار بين هبيرة بن المشمّرج الكلابي رسول القائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي يُشير إلى عمق الرؤية في الحوار من أجل الوصول إلى مبتغاه، سواءً أكان على الصعيد العسكري أم الثقافي، إذ ظاهر الأمر كان عسكرياً إلا أن الأمر جُلّه ثقافياً يُعبّر عن ثقافة العربي والصيني.

يُعد القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي من الذين ارتبط اسمهم بالصين في أغلب المصادر العربية التي أشارت إلى تلك الحادثة، إذ جاء في الخبر أنه لما قرب من الصين في فتوحاته كتب له ملك الصين كتاباً، وأن أبعث إلينا رجلاً من أشرف من معكم يُخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم.

لو تأملنا قليلاً عن هذا الكتاب لوجدناه يُشير إلى أركان التواصل اللغوي، فالأول الرسول، والثاني المرسل، والثالث الرسالة، وهذه عملية في حدّ ذاتها تدل على ثقافة الطرفين فضلاً عن الحنكة، فإنّ على القائد الباهلي أن يختار من يُجيد لغة التواصل في الحوار، وأن لا يأتي

مهزوماً؛ وإنما يجب أن يكون مُلمّاً بطرفي الموضوع، فضلاً عن أن كتاب ملك الصين فيه من الحكمة الشيء الكثير؛ لأنه يريد أن يستدل على أحوال العرب ومعرفة ثقافتهم خصوصاً؛ لأنهم كانوا يريدون أن يطؤوا الصين، إذ كان الملك دقيقاً في كتابه فهو يريد من الأشراف.

وبعد ذلك انتخب قتيبة بن مسلم من عسكريه في إحدى الروايات عشرة، أو اثني عشر رجلاً من أفناء القبائل، لهم جمالٌ وأجسامٌ وألسنٌ وشعورٌ وبأس، بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه، فاخترهم قتيبة بن مسلم من حيث الفطنة والمُحاورَة، ثم أمر لهم بعدة من السلاح والمتاع الجيد من الخزّ والوشي^(١٤) واللبن من البياض، والرقيق، والنعال، والعطر، وحملهم على خيولٍ مطيّه تُقاد معهم ودوابٍ يركبونها.

ولعلّ ما يُلفت النظر أن العُدّة كلّها ذات دلالاتٍ ثقافية متنوّعة، تعكس ما يريده العرب من ملك الصين، وتوحي له من الحكمة الشيء الكثير؛ لأنهم كانوا يمثلون ثقافة المجتمع الإسلامي آنذاك من حملة للعقائد والأفكار؛ لكونهم فاتحين لتلك البلاد، وجاؤوا بالسلم أولاً والحوار ثانياً، أو الخيار العسكري وهو الأخير.

فكان عليهم أن يكونوا بأحسن حال، وأفصح بالحوار على اعتبار أن العرب أهل فصاحة وبيان، فكان اختيار هبيرة بن المشمّرج الكلابي؛ لأنه فصيح اللسان.

ثمّ يوجههم قتيبة بأن لا يضعوا العمائم حتّى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فاعلموه: «أني قد حلفت ألا أنصرف حتّى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم».

فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحَمَامَ ثمَّ خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاً تحتها الغلائل، ثمَّ مسوا الغالية وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية؛ وهذه الأشياء تدل على ثقافة المُجتمع، فضلاً عن عظيم شأنهم في المجالس التي سيدخلون عليها... وعندها دخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته فجلسوا، فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا، فقال الملك لمن في حضرته كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا رأينا قوماً ما هم إلا نساء^(١٥) ما بقي منا أحد... إلا انتشر ما عنده.

ثمَّ لمَّا كان الغد أرسل إليهم الملك، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم ارجعوا، فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه أشبه بهيأة الرجال من تلك الأولى، ولما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح، وتكّبوا القسي وركبوا خيولهم، وغدوا، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مُقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثمَّ أقبلوا نحوهم مشمّرين... وبعدها انصرفوا فركبوا خيولهم، واختلجوا رماحهم، ثمَّ دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها. فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا ما رأينا مثل هؤلاء قط. فلما أمسى أرسل إلى زعيمهم هبيرة الكلابي، فقال له: قد رأيتم عظيم مُلكي، وإنه ليس أحد يمنعكم مني، وأنتم في بلادتي، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي^(١٦)، وأنا سائلك عن أمرٍ فإن لم تصدقني قتلتكم.

نلاحظ أنَّ الحوار أخذ يشند إلى أبعد من الثقافة، بل للتواصل عبر الحوار عهد وصدق الإجابة، فسأله عن الثلاثة أيام التي مضت وما

بدر فيها من سلوككم، فأجابه هبيرة الكلابي عن الأولى، فقال: زُيْنَا الأول فهو لباسنا في أهالينا، وهذا يعني أنَّ ثقافة العرب أن تلبس هذا الزي عندما تكون مع أهلها، فضلاً عن التعطر والتطيب. وأمَّا يومنا الثاني فهو إذا أتينا أمراءنا، وأمَّا الثالث فزُيْنَا لعدونا؛ فإذا هاجنا هيّج وفرع كنا هكذا.

فقال ملك الصين: ما أحسن ما دبّرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإنّي قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يُهلككم ويُهلكه، قال هبيرة للملك: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وأخرها في منابت الزيتون^(١٧)! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاًك! وأمَّا تخويفك إيّانا بالقتل فإنّ لنا أجلاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. فقال ملك الصين: فما الذي يُرضي صاحبك؟ قال: إنّه قد حلف ألا ينصرف حتّى يبطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطى الجزية. فقال الملك: فإنّا نُخرجه من يمينه. نبعت إليه بترابٍ من تراب أرضنا فيطوّه، ونبعت ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعت إليه بجزية يرضاها.

إنّ هذا الحوار يدل على حكمة عالية في حفظ حقوق الطرفين من حيث حفظ يمين القائد قتيبة بن مسلم الباهلي من جهة، ومن أخرى المحافظة على مملكته من جيش العرب. ثمَّ ذلك يعود أيضاً إلى هبيرة الذي عبّر عن ثقافة عالية بالحوار وكسبه لصالحه؛ لأنّ الملك حاول أن يصدده ويرده فارغ اليدين إلى قائده، ولكن حكمته أبهرت ملك الصين ممّا جعله يرضخ لحواره ويجد مخرجاً ينقذ الطرفين.

ثمَّ دعا ملك الصين بصحافٍ من ذهبٍ فيها

ترابٌ بحريّ وزهّب وأربعة غلمانٍ من أبناء ملوكهم، ثمّ أجازهم فأحسن جوائزهم ثمّ جاؤوا إلى قتيبة بن مسلم، فقبل الجزية وختم الغلّة وردّهم ووطئ التراب^(١٨).

إنّ التواصل الثقافي والمعرفي الذي تمثّل بالحوار بين ملك الصين وهبيّرة الكلابي موفد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي ما كان ليتمدّ إلّا لتضافر مجموعةٍ من الآليات التي أدت إلى نتائج إيجابية، وهي زمان التواصل الذي حدث في أجواءٍ فيها من الإيجاب أكثر، أمّا المكان فكان في عقر ديار ملك الصين، وأمّا اللغة فقد كانت حلقة وصلٍ معرفي بين كلا الطرفين، فضلاً عن العناصر الأساسية في التواصل وهي ملك الصين وهبيّرة الكلابي وكلاهما يمتلك من المقومات الكبيرة في عملية التواصل عبر حوارٍ استمر لأكثر من يوم^(١٩).

ولمّا انتهى الحوار بين الطرفين كانت النتائج لكلاهما مرضية، وقد قال سواده بن عبد الله السلولي ممتدحاً لو قد قتيبة بن مسلم وعلى رأسهم هبيّرة الكلابي^(٢٠):

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم
للصين أن سلخوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف
الرّدى حاشا الكريم هبيّرة بن مُشمرج
لم يرصّ غير الختم في أعناقهم
ورهائن دفعت بحمل سمّـرّج
أدى رسالتك التي استرعيتـه
وأناك من حيث اليمين بمخـرّج

ولو رجعنا إلى ثقافة اليمين عند العرب فهي التزائم معهود لا بدّ من الإيفاء به، وهذا ما لفت انتباه الملك في التعامل مع يمين القائد قتيبة بن مسلم بحكمةٍ كبيرة. وعلى الرغم ممّا في الرواية –

التي أوردتها أغلب المصادر العربية التاريخية – من قصةٍ غريبة ربما، إلّا أنّها تمثّل تواصلًا ثقافيًا بين العرب والصين عبر طريق الحرير الذي أتى العرب عبره، فهو مُلتقى الحضارات فضلاً عن الثقافات ولعلّها كانت بدايةً مُلتقى بينهما.

إنّ التواصل الثقافي يمكن أن يُمثّل كلّ مظاهر التبادل الفكري، واللغوي، والاقتصادي فضلاً عن احترام الأعراف والتقاليد الإجتماعية بين الشعوب، بل حتّى بين الأفراد. والحقيقة أنّ التواصل الثقافي يشمل كلّ جوانب الحياة من جهة ومن جهةٍ أخرى فإنّ للموقع الجغرافي أثراً في ذلك التواصل، ولعلّ ما ميّز العرب في تواصلهم مع العالم الخارجي – ولاسيّما الصين – هو موقعهم الإستراتيجي في غرب آسيا وشمال أفريقيا، ما جعلهم يتمتعون بمكانةٍ تجارية واقتصادية وممرّاً عبر طريق الحرير الذي ربط العالم العربي بالصين، إذ ما عرفنا أنّ عمق العلاقة تمتدّ إلى الخلافة الإسلامية – كما أسلفنا – في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفّان (رضي الله عنه)، وكما تذكر كتب التاريخ أنّه أرسل سبعةً وثلاثين مبعوثاً دبلوماسياً إلى الصين على امتداد العلاقة مع الإمبراطور يونغ خوي (Yong hui) (٦٥٠-٦٥٥م) من أسرة تانغ Tang سنة ٦٥١م، وفي عهد أسرة سونغ Song dynasty وصل عدد المبعوثين العرب للصين تسعةً وثلاثين مبعوثاً، وأمّا في عهد أسرة مينغ Ming dynasty، فقد وصل العدد إلى أربعين مبعوثاً^(٢١).

وهذا الأمر لم يقتصر على الدبلوماسيين فقط، وإنّما منهم التجار أيضاً الذين كانوا يحملون معهم رغباتهم الصادقة في إقامة علاقاتٍ وطيدة مع الشعب الصيني، إذ حملوا معهم الأشياء النادرة النفيسة التي لم تكن

موجودةً في الصين، ومنها حيوان الزرافة، فضلاً عن ذلك فقد أدخلوا معهم الكتب الدينية ولاسيما القرآن الكريم، والكتب الأخرى نحو كتب الأخبار والفلك والطب وغيرها.

وكلّ هذه العوامل أدت إلى التبادل الثقافي والاجتماعي بين الحضارتين العريقتين العربية والصينية، وهذا إنّما يدل على أنّ العرب كانت نظرتهن للصين نظرة ثقافية اجتماعية لما فيه من العلماء والأطباء وأهل المعرفة.

إنّ المتنبّع لأصول التواصل الاجتماعي والأخبار الواردة عن الصين يجد ذلك واضحاً في رحلة سليمان التاجر، التي تُعد من أقدم ما وصف الطريق التجاري البحري الذي يربط العرب بالصين عبر طريق الحرير البحري آنذاك، إذ جاء بوصفٍ دقيقٍ يكاد يكون الأكثر دقّةً من بين المصادر التي وصلت إلينا، فضلاً عن رصده لقسم من الظواهر الفلكية والبحرية التي شاهدها في طريقه إلى الصين، ومنها على سبيل التمثيل ظاهرة المدّ والجزر Tides، وجبل النار، والسّمك الذي يطير، والسّمك الذي يصعد على أشجار النار جيل The coconut tree فيشرب الماء ويعود إلى البحر، والسرطان البحري Crabs الذي يتحرّج إذا خرج من البحر^(٢٦).

ثمّ يذهب بنا سليمان التاجر إلى وصف عادات أهل الصين من الملبس والمأكّل من الحبوب واللحوم والفواكه، فضلاً عن أنواع الشراب المفضل لديهم، وكذلك وصف قسم من العادات والتقاليد الاجتماعية لديهم، ثمّ ذكره مصادر ثرواتهم ومتاعهم: «ولهم الذهب والفضة واللؤلؤ والديباج والحرير»، وكذلك ذكر ما يحصل إليهم، فذكر العاج واللبان والنحاس والذيل^(٢٧).

ولم يغفل سليمان التاجر طقوس أهل الصين وعاداتهم الدينية والاجتماعية والسياسية، إذ سجل طريقة دفن الموتى وكذلك الاهتمام بالتعليم والسياسة^(٢٤).

إنّ ما وصفه سليمان التاجر في رحلته إلى الصين كان محطّ أنظار التجار العرب الآخرين من حيث تشجيعهم على معرفة المزيد عن الصين فضلاً عن التواصل بينهما.

ثمّ يصف الطريق التجاري البحري من البصرة إلى الصين، وأنّ أكثر السفن الصينية تُحمل من سيراف، وأنّ المتاع تُحمل من البصرة وعُمان...^(٢٥)، ويُعد سليمان التاجر من المسلمين الأوائل الذين ساهموا في إعطاء صورة واضحة عن بلاد الصين سواءً على المستوى الجغرافي، أو على المستوى الثقافي^(٢٦) وهذا ليس غريباً عن الرحالة العرب؛ لأنّهم كانوا ينظرون إلى الرحلة كونها عملية استكشافية ثقافية انطلاقاً من المبدأ القرآني؛ لأنّ الإسلام حضّ على السفر، ومنه قوله (سجدة): {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (سورة الجمعة، الآية: ١٠).

ويذكر الكاتب لي رونج جيان^(*) Li Rong Jian^(٢٧) إنّ التجار المسلمين كانوا يذهبون شرقاً باتجاه الجنوب الشرقي للصين، وأغلبهم يرسون في كوانجو الواقعة في الشمال منها، وأمّا تجارتهن فكانت متنوعةً وكثيرة، فمنها: العطور، واللبان، والصمغ، والكافور، والعنبر، والفلفل، وعود السند، وعود هندي، وعود البخور، وماء الورد، وغيرها من الأنواع الأخرى، وكذلك حمل التجار المسلمين أنواعاً من المجوهرات، نحو: عاج الفيل،

وقرن الكركدن، ونبل اللجأة السهفية، واللؤلؤ، والمرجان، والعقيق، والكهرمان.

وأما الأدوية فكانت معروفةً عندهم، وهذا أضفى للتجار أن يأتوا بها إلى الصين، ومنها: العز، الليلك، القرنفل، وهذه البضائع التي كانت تُعدّ مرآةً لثقافة المسلمين الإجتماعية فضلاً عن الصينيين، ولذلك فقد نقلوها إلى الصين لدالتين، الأولى تجارية والثانية ثقافية؛ لأنهم بالمثل يعودون ببضائع تحمل ثقافة الصينيين فضلاً عن التجارة، ومن هذه البضائع: الخزف، والحريز، والشاي، والمسك، وغيرها من المنتجات الصينية، ومن جهةٍ أخرى فقد كانت السفن التجارية الصينية – التي أشار إليها الرحّالة العرب – تنقل البضائع إلى عُمان والبحرين والبصرة وبغداد، وهذا يدل على عمق وامتداد التواصل بين الحضارتين على صعيد التجارة والتبادل الثقافي؛ لأنّ الوافدين بالمُحصلة ينقلون طبائع وثقافة البلدان التي يمرون بها أو يقصدونها.

وينقل لنا المؤرخون^(٢٨) عن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (٩٥-١٥٨ هـ/٧١٤م)، أنّه قال عندما عزم على بناء مدينة بغداد السلام: إنّ «نهر دجلة سيربط بيننا وبين الصين البعيدة»، ولم يمضِ إلّا وقتاً على تأسيس بغداد ليُفتح فيها سوقٌ صينية يُباع فيها الحرير والخزف فضلاً عن الورق.

إنّ طريق الحرير قد جعل من المسافات البعيدة بين البلدان قريبةً عن طريق تبادل الثقافات، إذ إنّ الرحلة بين بلاد العرب المتمثلة بمينائي سيراف Bandar-e Sīraf والبصرة وجنوب الصين (كانتون) Canton و (نانكين) Nanking كانت تستغرق مائة وعشرون

يوماً في البحر دون توقف، ومن الطبيعي أن يتوقف البحّارة بين الموانئ التي يمرون بها في الطريق من البصرة أو سيراف، لذا كانت المدة تصل إلى ستة أشهر^(٢٩). فقد كان الرحّالة والتجار العرب القدامى الذين كانوا يقصدون (بلاد الخطا)^(٣٠) أو الصين، أول ما يتوقف عند (كانتون)، وقد عرف الصينيون العرب التجار أو جاء ذكرهم في الوثائق القديمة باسم (داشي)^(٣١) بمعنى التاجر؛ لأنهم يعتقدون أنّ التجار هم أول من رآها أهل الصين، وقد اختلطت المهنة بالمتة، وبعد ذلك أُطلق على كلّ مسلم لفظة (التاجر)، ممّا جعل الكلمة لصيقةً بالمسلمين فيما بعد، إذ ورد ذكر الأمويين باسم (باي لي دامشي) بمعنى المسلمين ذوي الملابس البيضاء، وكذلك ورد ذكر العباسيين باسم (خي لي داشي) بمعنى ذوي الملابس السوداء^(٣٢).

وقد ورد في دائرة المعارف الإسلامية^(٣٣): إنّ الصينيين يذكرون المسلمين في سجّلاتهم باسم (تاشيش)، وهي ناتجة عن تطوّر من الاشتقاق.

المحور الثاني:

التواصل في العصر الحديث

إنّ العلاقات العربية الصينية نالت في العصر الحديث حظّها الوافر من حيث التواصل الدبلوماسي، والثقافي، والعسكري، والاقتصادي، فمنذ أن أخذت الدول العربية استقلالها من الاستعمار الأجنبي في أربعينيات القرن العشرين، أقامت مصر، وسوريا، والعراق، والجزائر وغيرها من الدول العربية علاقاتٍ على أغلب الأصعدة بعد مؤتمر باندونغ الآسيوي – الأفريقي Bandung Conference الذي عُقد في Afro-Asian Conference الذي عُقد في

إندونيسيا منتصف خمسينيات القرن العشرين، أقامت علاقات دبلوماسية بشكل رسمي مع جميع الدول العربية وبقيت علاقتهما وطيدة إلى يومنا هذا، وهي متعاطفة مع الشعوب العربية ليظهر ذلك جلياً في التبادل الثقافي، إذ ترجمت الصين ونشرت أكثر من ثلاثين كتاباً عربياً، ومنها: (نسيم السلام، صوت الشعب العربي، النصر حليف الجزائر)^(٣٤).

إنّ هذا الأمر يُعد بادرة إيجابية لمعرفة ثقافة الشعوب، فضلاً عن آلية التفكير، ولاسيماً على صعيد الإطار السياسي، ولعلّ ما يميز العلاقات أيضاً دعم الصين للقضية الفلسطينية، ودليل ذلك قيام الرئيس ياسر عرفات (١٩٢٩-٢٠٠٤م) بزيارة الصين أربع عشرة زيارة، آخرها عام ٢٠٠١م، وكان الرئيس الصيني جيانغ تزي مين Jiang Zemin قد زار فلسطين بزيارة تُعد الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات بين البلدين، وذلك في الخامس عشر من أبريل عام ٢٠٠٠م^(٣٥)، ويُشير ذلك إلى مدى التواصل الثقافي والاجتماعي بين البلدان العربية والصين، وفيه دلالة على الدعم والتأييد المُتبادل سواءً أكان سياسياً أم اقتصادياً أم دبلوماسياً أم علمياً؛ لأنّ الصين والدول العربية يمتلكان حضارتين من أقدم الحضارات وأشهرها في مشارق الأرض ومغاربها، فكلاهما يحمل من التاريخ العتيق والمستقبل الزاهر، فالثقافة الصينية المعاصرة غنية المضامين ومتنوعة الأشكال على الأصعدة كافة، فضلاً عن تناغمها مع الثقافة العربية ذات الإرث الكبير، إذ ثبت ذلك عن طريق التجارب في مجال حماية الإرث كما في مصر، والسودان، والأردن، وتونس، والعراق وغيرها من الدول العربية، وهذا قد أطره الحوار وتبادل الثقافات بينهما على أساس المنفعة المُتبادلة

بينهما^(٣٦)، ويعود أغلبه إلى طريق الحرير الذي ربط العرب بالصين، إذ لولا وجود ممر بينهما لما وصل التواصل إلى ذروته.

وممّا لا شكّ فيه أنّ العلاقات بين العرب والصين مُستندة على تاريخها العريق، فضلاً عن المؤثرات التي ترتبط بتحديد مسار متواصل يطمح إليه كلا الطرفين، ولعلّ لهذه العلاقة إمكانية في قراءة الواقع في ظلّ المتغيرات المُتسارعة على الصعيد الدولي، فضلاً عن الصعيد الإقليمي، ومن أجل المُحافظة على التواصل المشترك فإنّ للطرفين مصالح مشتركة ومتبادلة لاستمرار هذا التواصل؛ لأنّ العالم أصبح متعدد الأقطاب التي يُسمّيها بعضهم القوى العظمى ومنها الصين^(٣٧).

ويبرز التواصل أكثر عندما قامت شخصيات صينيّة نحو الحاج عيسى ماروغ خلال الأعوام (١٩٣٧-١٩٤٠م) ببعثة، زارت البلدان العربية للحصول على دعم رسمي وجماهيري لكفاح الشعب الصيني ضدّ الغزو الياباني^(٣٨)، وهذا الأمر يدل على عمق الرؤية بين الشعب الصيني فضلاً عن حكومته بالتواصل مع العرب؛ لأنّهم يتمتعون بعلاقات مع العالم على مختلف الأصعدة، يمكن لها أن تدعم متطلّعات المقاومة الصينيّة، وبالفعل فقد نجحت الصين بهذه الخطوة؛ لأنّها كسبت صوتاً قوياً في دعم حربها ضدّ اليابان.

وقد أشار خبراء إلى أنّ طريق الحرير قد قدّم إسهاماتٍ عظيمة للحوار بين الحضارات والتبادلات الثقافية، وذكر (دينغ شوتشين) بأنّ الكثير من الثقافات في الماضي اتصلت بعضها ببعض من خلال طريق الحرير، إذ كان بمثابة رابطة محورية نُقلت من خلاله التكنولوجيا

الجديدة والتقاليد والاتجاهات، وليس السلع فحسب، وإنما الأفكار والسلوكيات^(٣٩) أيضاً، فضلاً عن الاتصال الثقافي العالمي.

ويمكن لنا القول إنَّ طريق الحرير كان أنموذجاً للتواصل الثقافي، والاقتصادي، والتجاري بين الصين من جهة، والبلدان العربية من جهةٍ أخرى، إذ لم يتوقف التواصل لُبعد المسافات بين الأمم، وإنما الفضل يعود لذلك الطريق الذي اكتسب شهرةً عالميةً لما قدمه من إسهاماتٍ على مختلف الأصعدة من التواصل.

ولعلَّ فكرة التواصل بين الأمم تدعو إلى بناء علاقاتٍ متبادلةٍ تقوم على أساس المصالح المشتركة، وهذا ما توكَّد عليه الزيارات الرسمية التي يقوم بها الطرفان عبر الحوار المباشر، أو تلك التي تدعو إليها المنتديات الثقافية والاقتصادية والتنمية عبر تحفيز مختلف الدول العربية، على التضامن والدعم والثقة المتبادلة وحسن الصداقة، وهو ما يعود بالنفع لكلِّ الأطراف، سواءً على العالم العربي الذي كان عنصراً رئيساً ومركزاً محورياً في طريق الحرير القديم، فضلاً عن التطلع إلى أن يكون كذلك في إعادة الطريق الحديث^(٤٠).

ويبقى محور التواصل الثقافي مرتكزاً على ما تطرحه تلك المنتديات، إذ أشار إلى ذلك في المنتدى الصيني-العربي الذي افتُتح بقاعة المتحف الوطني في العاصمة الصينية وبمشاركةٍ عربيةٍ تمثلت بوزراء الثقافة، فضلاً عن الوفود الأخرى، وأكّدوا على دعم مراكز الحوار الثقافي بين الصين والعالم العربي، وذلك عن طريق التعريف بالحضارة والثقافة والأداب والفنون الصينية والعربية^(٤١)، وتأتي هنا أهمية الترجمة باعتبارها أداةً رئيسيةً في التبادل والتواصل الثقافي؛ لأنَّ العلاقات الوثيقة

تُحتمُّ على الطرفين ذلك، وبالفعل فقد تُرجمت مئات الكتب العربية إلى الصينية سواءً تلك التي تُعنى بالحوار، أو بالدين، أو بالاقتصاد، أو السياسة... عبر مراكز دعمتها الدول العربية فضلاً عن الصين، وقد أكَّد تقرير ندوة العلاقات الصينية-العربية والحوار بين الحضارتين في (أورومتشي) Ürümqi (乌鲁木齐) عام ٢٠١٣م، على أنَّ الحوار الحضاري يُساهم في تعزيز التواصل والإفادة المتبادلة بين الصين والبلدان العربية ويساعد على تضافر جهود الجانبين لصيانة التعددية الثقافية للعالم، فضلاً عن تكريس روح الانفتاح والاحتواء، وإنَّ التواصل الثقافي يسعى إلى نشر قيم التسامح والتفاهم مع تأكيده على احترام حق كلِّ البلدان في اختيار الوسائل التنموية وفقاً لإرادتها المستقلة. والأمر الذي يدعو إلى تعزيز الحوار من أجل توفير الأرضية الشعبية الصلبة عبر زيادة وتوسيع علاقات التعاون الإستراتيجية الصينية العربية القائمة على التعاون الشامل والتنمية المُشتركة^(٤٢)؛ لأنَّ الروابط المُشتركة عبر التاريخ العميق للعلاقات العربية الصينية تُلزم الطرفين النهوض عبر وسائل التواصل الثقافي والاجتماعي الذي يخدم الشعبين، ومن ثمة فلا بدَّ لهما من زيادة ذلك التواصل والعمل على تنميته عبر الوسائل المتنوعة، ولاسيما تلك التي يكون لها أثر في نموِّ التواصل بينهما عن طريق إقامة فعاليات التواصل الثقافي، والفني، والاجتماعي للتعريف بالخصائص الثقافية لكلِّ منهما.

وتبقى الجهود الهادفة إلى زيادة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الصين والعالم العربي متنوعة يتقاطفها الطرفان، ولعلَّ الترجمة أبرز تلك الجهود الرامية إلى فتح الأفاق على تلك الحضارتين، وتكلَّلت تلك الجهود بترجمة العديد من الكتب الصينية والعربية، ولاسيما

كتب الفلسفة والتاريخ والطب... ولعلّ الخطوة الكبيرة التي قامت بها مكتبة الملك عبد العزيز العامة بفتح فرع لها في جامعة بكين Peking University التي تُعد نافذةً في العلاقات الثقافية بين البلدان، بل ونافذةً للتعريف بالثقافة العربية الإسلامية، ورافداً لإثراء برامج تعليم اللغة العربية في الجامعات الصينية، وهذا الأمر يُعد امتداداً للعلاقات الحضارية والتاريخية بين العالم العربي والصين، التي تعود جذورها إلى أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان^(٤٣).

إنّ هذه الخطوة هي من نتائج المنتديات العربية الصينية التي سعت دائماً إلى توسيع آفاق التعاون عبر التواصل الثقافي بين الطرفين؛ لأنّ التواصل عبر الثقافات يستلزم إجراءات عدّة، فلا بدّ من التعرف على اختلاف تلك الثقافات... لذا فعلى الطرفين احترام تلك الثقافات^(٤٤) فضلاً عن الهدف المنشود من التعرف عليها هو التواصل بما يخدم الطرفين، إذ جسور التواصل تستمد جذورها من تاريخ الحضارات وجمعها سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرق، وهذا كلّهُ يكون عبر التواصل الثقافي والاجتماعي بين البلدان، فكان لطريق الحرير الحظ الأوفر في ذلك.

إنّ جسور التواصل الثقافي تارةً تأخذ السبات وأخرى اليقظة، فمثلاً أخذت سبات طويل بين الصين والسودان، إلّا أنّها استفاقت تقريباً ما بين (١٩٨٩-٢٠١١م) ثمّ في ٢٠١٦م، إذ نجحت الصين في القطّاع الثقافي من إنشاء وتدريب فرق الاكروبات السودانية^(٤٥).

ويمكن القول إنّ التواصل الاجتماعي Social connectedness والثقافي Intercultural communication بين

الشعوب هو ظاهرة إيجابية تسعى إليها البلدان من أجل المصالح المشتركة بينها، فضلاً عن الانفتاح على ثقافات وعادات وتقاليد الشعوب الأخرى، ولعلّ طريق الحرير كان شمعاً أضاءت سبيل التواصل بين العرب والصين، وهذا الأمر قد دعا إلى تزايد اهتمام المجتمع الدولي بدعم المساعي والجهود المبذولة على أكثر من صعيد، من أجل تعزيز الحوار والتواصل بين الثقافات والتحالف بين الحضارات والتعايش بين الشعوب؛ إذ التواصل بين الشعوب لا بدّ أن يكون معتمداً على مبادئ الحق والعدل والمساواة^(٤٦)، فضلاً عن حقوق الإنسان Human rights، وهذا ما تحقّق على أرض الواقع بين أغلب البلدان العربية والصين؛ لأنّ التواصل هو سلوك حضاري يستند إلى عمق الحضارات ولاسيماً العربية والصينية، وعليه لا بدّ من تفاعل ثقافي بين الطرفين؛ لأنّ التفاعل هو مفتاح التواصل فالعلاقات الصينية - العربية كانت بين مدّ وجزر مع البلدان العربية؛ لأنّها كانت تنحو تجاه الأنظمة، وهذا - كما اعتقد - له آثار سلبية أكثر منها إيجابية؛ لأنّ الأنظمة تذهب وتتغير، ولكن الشعوب وحضارتها هي التي تبقى؛ لذلك يجب أن يكون التواصل قائماً على ما ينفع الطرفين من حيث تحقيق المصالح المشتركة ومنها: الإجتماعية، والاقتصادية، والتجارية، وأن تكون السياسة خادمةً لتلك المصالح وليس العكس، وهذا تجلّى أكثر وضوحاً في المنتديات الثقافية، إذ أصبحت العلاقات العربية - الصينية طريقاً يُحتدأ به في الشرق الأوسط، وأنّ المُنتبِع للواقع يجد أنّ الثقافة الصينية منتشرة في البلدان العربية على أغلب الأصعدة عن طريق الاستثمارات الاقتصادية والتجارية، والثقافية،

نتائج البحث وتوصياته:

يمكن أن نوجز أبرز النتائج والتوصيات بالآتي:

١. إنَّ العلاقة بين العرب والصين علاقة قديمة قَدَم الحضارتين العربية والصينيَّة.

٢. يُعد طريق الحرير منفذاً مهماً يربط العرب بالصين قديماً وحديثاً، ولا بدَّ أن يجد من العناية والاهتمام ما يؤهله بالمحافظة على قَدَم تلك العلاقات، فضلاً عن توسيعها على الأوسعدة كافَّة؛ لأنَّ الحضارتين أثبتت عبر الزمن أنَّهما تمتلكان علاقاتٍ تواصلية قد خدمت مصالح شعبيهما.

٣. لا يمكن أن يستمر التواصل من طرفٍ واحد، وإنَّما يجب الاهتمام به من كلا الطرفين عن طريق إنشاء منتدياتٍ ثقافية ومعرفية تُعرِّف الشعبين بتراثيهما عن طريق الترجمة والمعسكرات الكشفية.

٤. يوصي الباحث بتوسيع الاستثمار الصيني في البلدان العربية ولاسيماً في مجال الاقتصاد والنفط؛ لأنَّ الصين من البلدان المتقدمة اقتصادياً، فضلاً عن كونها محور رئيسي في مجلس الأمن الدولي.

٥. يوصي الباحث بزيادة العلاقات الدبلوماسية وزيادة التمثيل فيها، ليشمل مفاصل الحياة بما فيها البعثات الدراسية والزمالات في المجالات العلمية كافَّة.

٦. يوصي الباحث بفتح المجال أمام الشعبين للتواصل الاجتماعي عبر تسهيل عملية التواصل، سواءً أكانت عن طريق الرحلات السياحية، أو العلاجية، أو غيرها بما يتناسب مع عمق إرث التواصل بين الحضارتين.

حتَّى أخذ الشباب العرب بالتوجه للدراسة في الصين، وعن ذلك ينتج الاحتكاك بين الشعوب، فيكون الأخذ والعطاء بينهما أكثر إيجابية. ومن الجدير بالذكر أنَّ الإسلام أخذ ينتشر بفضل ذلك الاحتكاك، إذ برزت المساجد في الصين ليؤدَّى بها الطقوس الإسلامية، وكذلك الجمعيات الخيرية التي تدعو إلى نشر الإسلام، ومن ثمَّ نشر الحضارة الإسلامية والعربية بين المدن الصينيَّة، ونتيجةً لهذا التواصل فقد أظهرت تقارير رسمية أنَّ الصين أصبحت أكبر مستثمر في المنطقة العربية في عام ٢٠١٦م، إذ بلغت قيمة استثماراتها (١٩٩,٦٣) مليار يوان (The renminbi (人民币) ما يُقارب ٢٩,٥ مليار دولار)، أي ما يمثل ٣١,٩٪ من حصَّة السوق متجاوزةً كلَّ الدول العظمى^(٤٧). وهذا الاستثمار شَمِل أغلب الدول العربية إنَّ لم يكن جُلُّها، على الرغم من التحديات التي يواجهها المجتمع العربي بشكلٍ خاص، والدولي بشكلٍ عام، بسبب الصراع الإقليمي في المنطقة العربية، فضلاً عن تنافس الشركات العالمية في المنطقة، وفي ظلِّ هذا فقد تمكَّنت العلاقات الصينيَّة - العربية من التواصل الثقافي بين الشعوب، والذي يمثل حقيقة تاريخية، لاسيماً وأنَّه يمتد في عمق الحضارات التي تواصلت منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، ومع انفتاح نوافذ الحداثة والعولمة يتسارع العالم في مدِّ جسور الصداقة والتواصل مع العرب؛ لأنَّ الحضارة الإنسانية بشكلٍ عام لا يتحقق فيها التوازن إلا بتعددية الثقافات ومصادرها^(٤٨)، وما إعجاب العرب بالصين والعكس إلا أنموذجاً يُقتدى به في سير العلاقات الصينيَّة العربية.

الهوامش:

الدراسات الإستراتيجية، (موقع على الإنترنت).

(١٣) الصيني، العلاقات بين العرب والصين، ص ١٦٠-١٥٨ (بتصرف).

(١٤) الوشي: هو النقش في الثياب. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (وشي).

(١٥) هذه كناية عن جمال لبسهم وصورهم.

(١٦) هذه كناية عن قوته بالعدد وقوّتهم.

(١٧) كناية عن مدينة الزيتون (تشيواند تشوفو)، وهي

مدينة صينية واقعة على الساحل، شمال كانتون.

وذكر ابن بطوطة أنّ هذه المدينة لا يوجد فيها

زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين؛ وإنما اسم لها

بلغت أهلها، وهي من أكبر الموانئ الصينية آنذاك،

يُنظر: شفيقه، عيساني، شبه القارة الهندية وبلاد

الصين من خلال الرحالة والجغرافيين المسلمين

(الفترة ما بين القرن الثالث إلى الثامن الهجري)،

رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر،

٢٠٠٩م، ص ٦٨ (بتصرف).

(١٨) الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير

(ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك،

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، (القاهرة،

دار المعارف، د. ت.)، ج ٦، ص ٥٠٠-٥٠٣

(بتصرف)؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي

الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ،

تحقيق: محمد يوسف الدقاق، (بيروت، دار الكتب

العلمية، ١٩٧٨م)، ج ٤، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(١٩) الماضي، سامي، أثر طرق الحج في التواصل

اللغوي.. دراسة إبستمولوجية، (بغداد، دار بغداد

للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٧م)، ص ٨-٩.

(٢٠) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٦، ص ٥٠٣؛

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٢٩٠.

(٢١) لي رونج جيان (Li Rong Jian)، تاريخ

العلاقات الصينية العربية.. حاضرها ومستقبلها،

المركز العربي للمعلومات (AIC)، مركز

الدراسات الإستراتيجية، (موقع على الإنترنت).

(٢٢) السيراقي، سليمان التاجر (٣٩هـ/٩م)، عجائب

الدنيا وقياس البلدان، تحقيق: سيف شاهين

(١) زرمان، محمد، «فعل التواصل.. مقارنة في الأبعاد

والشروط»، بحث منشور ضمن فعاليات مؤتمر

فيلادلفيا الرابع عشر، ٢٠٠٩م، ص ٣ (بتصرف).

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩ (بتصرف).

(٣) لبيب، الطاهر، الآخر في الثقافة العربية، (بيروت،

مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩م)، ص ٢٠٤

(بتصرف).

(٤) ابن فارس، أبو الحسين احمد بن زكريا

(ت ٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق:

عبد السلام محمد هارون، (القاهرة، دار أجياد

الكتب العربية، د. ت.)، مادة: (وصل)؛ ابن منظور،

مُحَمَّد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب،

تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط٢، (بيروت، دار الكتب

العلمية، ٢٠٠٩م)، مادة: (وصل).

(٥) هويدي، فهمي، الإسلام في الصين، (بيروت، عالم

المعرفة، ١٩٩٨م)، ص ١٩.

(٦) المرجع نفسه، ص ١١.

(٧) زرمان، «فعل التواصل.. مقارنة في الأبعاد

والشروط»، ص ١١.

(٨) هويدي، الإسلام في الصين، ص ١٩.

(٩) زرمان، «فعل التواصل.. مقارنة في الأبعاد

والشروط»، ص ٢٠.

(١٠) الصيني، بدر الدين حي، العلاقات بين العرب

والصين، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية،

١٩٥٠م)، ص ٢٠.

(١١) ورد أكثر من حكم على صحّة الحديث، فمنهم

من حكم عليه بالضعف، ومنهم من قال إنّه يرقى

إلى الحسن. راجع: الألباني، مُحَمَّد ناصر الدين

(ت ١٤٢٠هـ)، معجم الألباني.. سلسلة الأحاديث

الضعيفة والموضوعة، (الرياض، مكتبة المعارف

للنشر والتوزيع، د. ت.)، ص ١٢٩، رقمه (٩٠٦)،

(٩٠٧).

(١٢) يُنظر: لي رونج جيان (Li Rong Jian)، تاريخ

العلاقات الصينية العربية.. حاضرها ومستقبلها،

المركز العربي للمعلومات (AIC)، مركز

(٣٧) نحو أهداف وأليات جديدة للتعاون الثقافي والتجاري على طول طريق الحرير، موقع على شبكة الانترنت، ص٢، (بتصرف).

(٣٨) الدبلوماسية الشعبية والعلاقات الصينية، ص٨٦، نقلاً عن: المرجع السابق، ص٣، (بتصرف).

(٣٩) يُنظر: منتدى طريق الحرير: قَدَم إسهاماتٍ عظيمة للحوار بين الحضارتين، شبكة الصين الإلكترونية Arabic CHINA.ORG.CN، الصفحة الأولى.

(٤٠) المرجع نفسه، (بتصرف).

(٤١) «أهمية الترجمة والتبادل الثقافي الصيني – العربي»، مقال منشور في صحيفة اللغة العربية الإلكترونية، على الموقع الإلكتروني:

www.arabiclanguageecic

(٤٢) يُنظر: منتدى التعاون الصيني العربي، على الموقع الإلكتروني:

www.casf.org

(٤٣) يُنظر: صحيفة (سبق) الإلكترونية، ع٥٤، ١٥/مارس/٢٠١٧م، (بتصرف).

(٤٤) قلعته جي، عبد الفتاح، «التواصل الثقافي بين الشعوب»، جريدة الجماهير، الصادرة عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، حلب، ع٣٢٤، ١٥/٨/٢٠١٧م، ص٣٨.

(٤٥) أحمد، جعفر كرار، «العلاقات السودانية الصينية (١٩٥٦-٢٠١١م)»، مجلة المستقبل العربي، الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، دت، ص٣٧.

(٤٦) التوجري، عبد العزيز بن عثمان، التواصل الحضاري والتفاهم بين الشعوب، منشورات المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم والثقافة – إييسكو، الرباط، ٢٠١٠م، ص٧، (بتصرف).

(٤٧) يُنظر: التبادلات الصينية العربية، موقع على شبكة الانترنت:

<http://www.xinhuanet.com/silkroad/arabic/zajl.htm>

(٤٨) يُنظر: قلعته جي، «التواصل الثقافي بين الشعوب».

المريمتي، (أبو ظبي، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٥م)، ص١٩، ص٤١-٤٢ (بتصرف).

(٢٣) جلود ظهور السلاحف.

(٢٤) التاجر، عجائب الدنيا وقياس البلدان، ص٢٠، ص٤٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ص٣٥.

(٢٦) شفيقه، شبه القارة الهندية وبلاد الصين، ص١٦.

(*) هو: لي رونج جيان Li Rong Jian، من مدينة شيانغ فان Xiang Fan بمقاطعة خو بيه Hu Bei. مواليد عام ١٩٥٥م. انتهل العلم في كلٍّ من مصر والعراق على التوالي، وعمل كسكرتير أول وكنائب للقسم السياسي في السفارة الصينية لدى سوريا من يناير عام ٢٠٠١م إلى آذار عام ٢٠٠٣م. معني بشكلٍ أساسي في دراسة وبحث التاريخ العربي والتعليم الثقافي. البروفيسور لي رئيس معهد البحوث العربية في جامعة ووهان Wuhan University حالياً، له العديد من الأعمال الأدبية والترجمية، وتَنقَل في العديد من المناصب الهامة، نظراً لِمَا قَدَّمه من مساهمات بارزة في دفع وتطوير علاقات التعاون والتبادل السياسي والثقافي العربي – الصيني. [المحرر].

(٢٧) لي رونج جيان، تاريخ العلاقات الصينية العربية، (بتصرف).

(٢٨) هويدي، الإسلام في الصين، ص١٢.

(٢٩) المرجع نفسه، (بتصرف).

(٣٠) كانوا يسمونها بـ(البحر).

(٣١) هي كلمة معناها في الصينية: (التاجر).

(٣٢) نقلاً عن: هويدي، الإسلام في الصين، ص٢٩.

(٣٣) م. ت. هوتسما Martijn Theodoor Houtsma وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، تحقيق: إبراهيم زكي وآخرون، (الشارقة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨م)، ص٢٩.

(٣٤) لي رونج جيان، تاريخ العلاقات الصينية العربية.

(٣٥) للمزيد عن الزيارات المتبادلة بين الرؤساء العرب والصينيين، يُراجع: المرجع نفسه، (بتصرف).

(٣٦) المرجع نفسه، (بتصرف).

Impact of Silk Road on Cultural and Social Communications between Arabs and China

Prof. Dr. Sami Al-Madhi

Abstract:

Silk Road, in its northern and southern halves, is one of the most important guarantees linking China to the World because it is an economic, commercial, and cultural contributor that helps maintaining the main pillars upon which the Chinese Empire relied. Therefore, it was a window for communication with the World, and this explains the Chinese interest in such road, as its advantages put China among the advanced countries of the World.

There is no doubt that any turn in a given society has reflections that show social, cultural, and cognitive phenomena with economic, commercial, and cultural impacts on more than one aspect in such society. The emergence of Islamic Call is a very good example of the Researcher's point of view. This is clear in Arabia when the call for Islam appeared first in Mecca before spreading by ambassadors of Islam eastward and westward with the Islamic conquer reaching the western borders of China. Sources state that the Arabic leader Qutaiba Bin Muslim Al-Bahili, when conquering Samarqand and Bukhara

up to the borders of China, he swore not to leave until he set his foot inside the Chinese territory. He sent a delegate to the Emperor to negotiate with him. The negotiators agreed not to have a war and the Emperor sent gifts of silk and golden sheets with sand from China so that Qutaiba would step on it and thus would keep his promise. Qutaiba accepted that.

This story is strong evidence of mutual influence through cultural dialogue, which led to the avoidance of war and exchange of gifts, the ideal method to solve disputes and avoid conflicts. The idea of this study stems from such notion. It aims at showing the impact of the Silk Road on cultural communication between Arabs and Chinese. The study contains two main aspects: communication in the Islamic Age and communication in the modern age, preceded by introduction and followed by conclusions and list of works cited. The most notable of such conclusions is the peaceful relations between Arabs and Chinese and giving priority to mutual interest on unfruitful conflicts.